

فلسفة سبنسر

للاستاذ زكى نجيب محمود

- ٢ -

تطور الحياة

يبدأ سبنسر كتابه عن تطور الحياة بتعريف الحياة نفسها بأنها التوفيق بين الكائن الحي وبيئته، ويتوقف كمالها على كمال هذا التوفيق. فهذا حيوان يكتمس بالفراء لتبقى لذعة البرد، وذلك قد أعد لاختزان الطعام لما عساه أن يصادفه من حط وإجذاب، وثالث يستطيع أن يتلون بلون الارض التي يدب فوقها حتى لا يصير العدر فيفتك به، الى آخر هذه الوسائل التي زودت بها الطبيعة الأحياء، أرعبارة أصح، التي قسرها الأحياء قسراً على أن تزودهم بها للزود عن حياتهم، مما يعلم القراء جميعاً. وينتهي أن هذه الملاءمة لم تبلغ ولن تبلغ درجة الكمال ما دام الحيوان مخلوقاً ناقصاً يعتبره الضعف والموت، ولكن مهما يكن من أمر فهو دائب لا يني عن السعي الخيث في زيادة هذه الملاءمة شيئاً فشيئاً، بان يكمل هذا النقص تارة وذلك طوراً، وينتفع من أعضائه حتى يتمكن من مجاورة الطبيعة ومقاومتها، ومعنى ذلك أن الكائن الحي يشعر بالحاجة أولاً ثم ينطلق في سعيه جيلاً بعد جيل يستمد من الطبيعة عضواً

الشرق، وشكسبير ودوسو وهو جوفى الغرب، أما إذا كان موضوعه مصبوغاً بصبغة البيئة وألوان المكان وأغراض الشعوب والاجناس فهو خالد في حدود من يصورهم ويتحدث بلسانهم. ومن أمثله بعض أدب حانظ وشوقي مما يغذى الوطنية في مصر، وردبارد كبلنج في إنجلترا، وجميع الآداب القومية التي سترها اليوم كل شعب. وليس يعنى هذا التفاوت في سعة النفوذ تفضيلاً في الرتبة بين خلود وآخر، لان الاديب قد ينتج النوعين وينبغ في الناحيتين معا، ولكه يقال كقاعدة عامة في هذا العصر الذي أصبحت القومية روح وجوده أنه لا بد لكل شعب من أدياب قوميين يغذونه بالادب الرفيع الخالد.

محمد ضياء الدين الرئيس

(الرسالة) لا تتحمل الرسالة بالطبع تبعاً ما تنمونه من الآراء ومبادئ مبدئية بأب. كاتانيا

يسدله ما أحسن من نقص، فهو مثلاً يشعر بحاجة الى النظر لكي يبين ما يحيط به في دقة ووضوح فيكون لنفسه على مر الدهر عضواً للإبصار، وهكذا قل في سائر الاعتناء،

وليست الحياة الا هذا التوفيق الذي لا تقطع أسبابه، ولا تقتصر هذه المحاولة على أفراد الحيوان، بل تعدو الى الانواع، إذ يسعى كل نوع باعتباره كلال الملاءمة بينه وبين البيئة. ويرى سبنسر توافقاً عجيباً بين تكاثر الحيوان وما يحيط به من الظروف الطبيعية، فهو يرى أن الأصل في التناسل هو التخلص الكائن الحي من زيادة في حجمه لا تقاسب مع جهازه الهضمي، أي أن كتلة الكائن الحي اذا طردت في النمو، تصل الى حد لا تستطيع معه المدة أن تسد حاجتها في الغذاء، وعندئذ ينتظر الحيوان الى أن يقف نموه عند حد معين، وكل زيادة تفي. بعد ذلك يتخلص منها بان يخرجها من لسانه. وتطبق ذلك، أن الانسان، ذكر أو أنثى، يأخذ جسمه في النمو الى حد محدود ثم يقف نموه اذا ما جاءت مرحلة التناسل، ولذا نرى أن عدد النسل يتناسب تناسباً عكسياً مع درجة النمو، ذكلاً كبر حجم الحيوان كان نسله أقل عدداً، فبينما تنسل الذبابة مثلاً عشرات الذباب لا يلد الفيل الا واحداً. كذلك يتناسب عدد النسل مع مقدرة الحيوان على مقابلة الاخطار. فان كان ضعيفاً عاجزاً عن صد ما يهدده من الكوارث لجأ الى كثرة النسل ليعوض فناء أفراد النسل. من ضعف المقاومة والا تلاشى النوع، والمكس صحيح، أي اذا كان النوع قادراً على الاحتفاظ ببقائه، وجبت قلة النسل، والارجحت كثرة العدد على كمية الطعام. ومعنى ذلك بعبارة أخرى انه كلما ارتقى النوع في سلم الحياة، كان أقدر على الاحتفاظ بوجوده، وكان بالتالي قليل النسل. وهذه القاعدة صحيحة الى حد كبير حتى في الافراد، أي اذا ارتقى الفرد في عقله وذكاؤه كان أقل نسلًا. وبما هو جدير بالذكر انه كلما ازدادت عند الفرد كمية الاستهلاك العقلي أي التفكير - قل عدد النسل أو انعدم. ولعل أبلغ آية لذلك عمق الفلاسفة. وقد يشير هذا الدليل الى ان الانسانية تسير في تطورها نحو مرحلة تزيد فيها القوة العقلية ويقل عدد النسل.

وعلى الرغم من ان الطبيعة ساهرة على هذا التوفيق بين نسبة التناسل وحاجة النوع. فقد يظهر انها أخطأت الحساب ومالت نحو الاكثار من السكان، بغض النظر عن كمية الغذاء، وحق للمفكر

ان يحجر بدعوته الى ضبط النسل لما لاحظته من زيادة السكان على مواد الغذاء .

تطور المجتمع

ليست دراسة الاجتماع باليسيرة الممهدة ، بل يعترض سبيلها من العقبات والصعاب ما لا يستطيع التغلب عليها الا الافذاذ الفحول ، فقد حدث مرة ان ارتحل رجل فرنسي الى انجلترا يقضى بأرضها بعض الوقت ترويحاً للنفس وجأ للاستطلاع فلم يكذب يقضى على اقامته بها أسابيع ثلاثة حتى اعتزم ان يصدر كتاباً عن انجلترا ، اذ خيل اليه انه قد درس شعبها فأقن الدراسة ، فلما انقضت شهور ثلاثة ، هم بوضع كتابه ، ولكنه أدرك أنه لم يتقن الدراسة بعد بحيث يستطيع ان يخرج الكتاب الذي يريد ، وآثر الروية والآنفة ، فلما انقضت سنوات ثلاث ، اتسع شعوره بالعجز والقصور ، وأيقن أنه لا يعلم من موضوعه شيئاً ... وهذا صحيح ، فقد يخيل للانسان للوهلة الأولى ان دراسة المجتمع سهلة ميسورة ، ولكنه كلما ازداد علماً بدقائقه ، ازداد يقيناً بجمله وعجزه

فما بالك بالجهود التي بذلها سبنسر ، وهو لا يريد أن يدرس شعباً بعينه فحسب ، بل يقصد الى دراسة المجتمع الانساني بأسره وكيف تطور كيانه من حالة الى حالة ؟ فهو يرى ان المجتمع كائن عضوي له أعضاء للتغذية وللدورة الدموية ، وفيه تعاون بين الاعضاء ، وله فوق ذلك تناسل وافرار ، شأنه في كل ألوان الحياة شأن الافراد سواء بسواء ... فهو ينمو ، وكلما ازداد نموه اشتد تعقداً ، وكلما تعقدت ازدادت اجزأؤه استقلالاً . وحياة المجتمع باعتباره كلا طويلة جداً بالنسبة الى حياة اجزائه التي يتألف منها . والمجتمع كالفرد يتعاوره التكوين والانحلال ، هما وجهان التطور : فنمو الوحدة السياسية من الاسرة الى الدولة ثم الى عصبة الأمم ، ونمو الوحدة الاقتصادية من الصناعة المنزلية الصغيرة الى نظام الشركات ثم الى الاحتكار ، ونمو وحدة السكان من القرية الى المدينة ... كل هذه ظواهر للتجمع والتكوين ، ولكنك من جهة اخرى ترى تقسيم العمل وتعدد المهن والصناعات ، وتنوع الاتاج بين الريف والمدن ، وبين أمة وأمة ... وهي دلائل تشير الى التنوع والتنافر . . . وتستطيع كذلك أن تلمس التطور بشطريه - تألف الاجزاء في وحدة ، ثم تافرها داخل تلك

الوحدة - في كل جانب من جوانب المجتمع : في الدين والحكومة والعلم والفن وغيرها

فقد كان الدين أول الامر عبادة طائفة من الآلهة والأرواح ، فأخذت هذه تتجمع وتأتلف حتى تركزت في إله واحد . ثم عاد التوحيد ففرع الى جملة من الاديان وطائفة من العقائد ، ولم يتحور الدين في شكله فقط ، بل تبدل موقعه من النفوس كذلك . فقد كان المحور الذي تدور حوله رحي الحياة بأسرها ، ذلك لانه ألقى في روع الانسان الأول ان هذه الحياة الدنيا غرور ولهو ، ويجب أن يربأ بنفسه أن تنفس في حمانها أو تلوث بادرانها ولكن الآخرة وحدها محط آماله ومعقداً لأمانيه ، فهي خير من الأولى وأبقى ، ولكن ما لبثت وجهة النظر أن تطورت ، وتوجه الانسان بشطر من عنايته نحو هذه الحياة التي يعيش فيها . واخذت تلك العناية تزداد شيئاً فشيئاً كلما اتسع نطاق العمل الصناعي .

أما نظام المجتمع فلعل أبلغ ما طرأ عليه من تغير ، هو الانتقال التدريجي من النظام الحربي الذي ساد أوروبا إبان العصور الوسطى الى النظام الاقتصادي الصناعي ، ويعتقد سبنسر أن تقسيم الحكومات الى ملكية وأرستقراطية وديموقراطية وما الى ذلك ، ان هو الا عرض تافه لا يمس الجوهر والصميم ، وأما الحد الفاصل الذي يميز دولة من دولة ، فهو أساس بنائها الاجتماعي . هل يقوم على النزعة الحرية أم يصطبغ بصبغة الصناعة ، وبعبارة أخرى تنقسم نظم الاجتماع نوعين : جماعة تعيش من أجل الزوال والقتال ، كما كانت الحال في نظام الاقطاع ، وجماعة لا تجد في الحياة هدفاً تتجه صوبه وتحيا به ومن أجله سوى العمل ، فذلك تحارب من أجل الحياة ، وهذه تعمل من أجل الحياة .

والدولة الحرية صفات تلازمها ، منها ان السلطة تركز في قبضة الحكومة وحدها ، ويقلب أن تكون حكومة ملكية لا تدخر وسعاً للتفريق بين أفراد الشعب الواحد الى طبقات بعضها فوق بعض ، فتكون الحرب والفروسية صناعة الاشراف ، وللسوقة الصناعة وفلاحة الأرض ... كذلك تعظم في الدولة الحرية سيطرة الرجل في الاسرة ، ذلك لأن الرجال هم عماد الحروب ، وأن منزلة الرجل في حومة الوغي من منزلة المرأة قابضة في عقر دارها ؟ ويمقت سبنسر هذا الضرب من الاجتماع الذي تدور حياته حول قطب الحرب ، لأن مصلحة الفرد تدوب

والشر؟ أما سبسر وأتباعه فلا يترددون لحظة في إخضاع الأخلاق، كأي شيء آخر، إلى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة، وبعبارة أخرى يريدون أن تلقى بزمام الإنسان في يد الطبيعة نفسها تختار من أخلاقه ما تشاء. وقد ناهضهم طائفة كبيرة من العلماء والكتاب، يربأون بأخلاق التي تراضع المجتمع عليها أجيالا متعاقبة. أن توضع بين مطرقة الطبيعة وسندان التطور، يفعلان بها كيف شاء لهما الهوى وفي ذلك يقول هكسلي: إن علم الحياة لا يصلح دليلا خلقيا بأية حال من الاحوال، إذ كيف تترك مصيرنا في كف الطبيعة العمياء، وهي كما قال عنها تسون الشاعر الانجليزي «ملطخة بالدماء نابا وغظبا»!! نعم، كيف نذر الطبيعة نصب في قلوبها ما يطيب لها من أخلاق وهي كثيرا ما تمجد الوحشية والمكر والخداع وتمقت الرحمة والعدل والحب؟

ولكن تحدث بهذا المنطق لنير سبسر لابد أن تخضع مبادئ الأخلاق للانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء، وليق من أخلاقنا ما يصمد لهذه التجربة القاسية، وليف منها ما تذروه هذه الريح العاصفة... الأخلاق — كأي شيء آخر — تعود على الإنسان بالخير أو بالشر بمقدار ما تسابق أغراض الحياة «والخلق السامي هو ذلك الذي يسير مع الحياة ويشاطرها فيما ترمى إليه» فنقبل من الأخلاق ما يلائم الحياة، ولترفض منها ما يعترض سبيلها ويجراها، أو بعبارة أخرى يجب أن تكون الأخلاق بحيث تعاون الفرد على البقاء في مضطرب الأهواء المختلفة المتنازعة التي تصدر من أعضاء المجتمع. ولما كانت هذه الملائمة بين الفرد والمجتمع تختلف باختلاف الزمان والمكان، كانت بالتالي فكرة الخير تختلف عند الشعوب أوسع اختلاف. ويرى سبسر أن الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الطيب من الخبيث، وهو مقياس السرور واللام، فإذا صادف سلوكنا من أنفسنا ارتياحا ورضى، كان ذلك دليلا على ملاءمته للحياة الكاملة، لأن ذلك الاطمئنان الباطني علامة على أن الطبيعة قد اختارت ذلك السلوك ليكون سبيلا إلى حفظ الحياة. فأنت تستطيع إذن أن تفرق بين الخير والشر، بما يبعثه العمل المعين من سرور أو ألم لانهما دليل ساقته الطبيعة نفسها للتفريق بين هذا وذلك.

نعم بما تقدم أن الأخلاق تختلف لونها باختلاف البيئة الطبيعية أو الاجتماعية، لأن الأولى صدى الثانية وانعكاسها، ولما كان نظام المجتمع في العصور الوسطى أخذ يتطور في كثير من أسسه وقواعده،

وتلاشى في صالح المجموع، ولما من الدولة لا تقوم إلا على القتل والسرقة، ونحن إن كنا نصم الإنسان الأول بالوحشية لأنه كان يلتهم لحوم البشر، فأحدرنا أن نزردي هذه الدول التي تأكل شعوبا بأسرها في وجبة واحدة! ويعتقد سبسر أن رقي الإنسانية مرهون بالغاء الحروب، وهو لا يرى سبيلا لتحقيق هذا المثل إلا على سوي أن تقطع الأمم شوطا بعيدا في الصناعة لأنها تعمل على المساواة والسلام، وهي تقسم السلطة بين أعضاء المجتمع جميعا ولا تركزها في أيدي الحكومة وحدها، وفضلا عن ذلك فهي تتخذ العقول وتدفعها إلى الابتكار، وهو المعول الهدام الذي يكفل لنا تحطيم التقاليد الوراثية التي تقوى من شوكة الحكومة... وستصبح الوطنية في ظل الصناعة حبا للوطن لا كراهية للأوطان الأخرى، ثم إذا اطرد تموها، فستؤدي حتما إلى إزالة الحواجز الجبركية التي تفصل الدول بعضها عن بعض، وعندئذ تنورق دوحه السلام وتمتد فروعها حتى تفيأ ظلها أبناء الإنسانية جميعا... وإذا ما خفقت راية السلام واحت الحروب، زالت دولة الرجل، ولا يعود له في أسرته سلطة الحجاج التي ينعم بها، ويرتفع قدر المرأة حتى تقف معه كفتا إلى كفت، لنشابه ما يؤديان من عمل، وعندئذ فقط يتحقق تحرير المرأة الذي تشده.

ولما كانت الصناعة تستقي ماء حياتها من الملم فلا ريب في أن تقدمها وانتشارها ينتجان تربية التفكير العلمي وصحة الاستنتاج للأسباب والمسببات، ولن يلجأ الإنسان بعدئذ إلى قوى الطبيعة الخارقة والابالسة والشياطين يعلل بها أحداث الحياة... وفوق هذا كله سيتقلب التاريخ رأسا على عقب، فستزدهر صحائفه بذكر الرجال العاملين بدلا من الملوك المحاربين. سيفسح في مجاله للبخترعات والأفكار... سيزداد الشعب سلطانا وقوة، وتقلص سطوة الحكومة وتكتمش، وسيبسط ذلك الوهم العتيق البالي الذي يفرض على الفرد أن يحيا من أجل دولته، وأن يضحي بنفسه في سبيلها، وسيعلم الناس حقا أن الدولة إنما وجدت وانشئت لصالح الفرد، وأن كان هذا هكذا فلا يجوز أن تضحي الحياة من أجل العمل، بل يجب أن يكون العمل أداة تستغلها الحياة في تحقيق السعادة والهناء.

نار الموعود

على أي أساس نشيد مبادئ الأخلاق؟ وبأي مقياس نزن الخير

ابن قلافس

(٥٣٢ - ٥٦٧) (١١٣٨ - ١١٢٢)

- ١ -

في ثغر الاسكندرية ، مهبط الوداع واللقاء . حيث تجلب السفن قوما وتذهب بأخرين ، وتحمل أناسا إلى أوطانهم ، بينما تذهب بغيرهم إلى بلاد غير بلادهم وآل غير آلهم ، وحيث البحر الأبيض يحمل عبابه السفن ، مهنديه بمنار الثغر ، فتخط إليه أو ترحل عنه ، وفي رابع ربيع الآخر عام اثنين وثلاثين وخمسة ولد لعبد الله بن مخلوف بن علي ولد سباه نصرانه ، وكناه أبا الفتح ، ولقبه الناس بعد ذلك بالقاضي الاعز ، وشهر في كتب الادب بابن قلافس ، وأرجح ما نراه سببا لكنيته الاخيرة أن أحد الاجداد في عمود نسه يسمى بقلافس ، لحمل حفيده الشاعر النسبة إليه ، (وقلافس بقافين . الاولى مفتوحة والثانية مكسورة جمع قلافس ، وهو معروف) ولنا ندرى السبب الذي من أجله سمي جده بهذا الاسم .

ولهذا الطفل الذي كان على ما يظهر نحيفا ضئيلا الجسم ، وظلت صفة النحافة ملازمة له ، لم تبرحه طوال حياته حتى قال حينئذ كبر يحدثنا أن ضالة الجسم لا تحول بينه وبين العلاء :

جوهر المرء نفسه وبها الفضل ، وما غير ذلك فهو فضول والصغير الحقير يسمو به السيد فيحنوله الكبير الجليل فرزن اليدق التنقل حتى ان حط عنه في قيمة الدست فيل ويروى بعض الرواة أنه لم تكن له لحية ، ولكن شعره يحدثنا أنه كان خفيف العارضين حيث يقول :

لا تغرنك اللحى من أناس درجوا كالخير تحت الخيال
ولئن خف عارضاي فاني لا أبالي بكل واني السبال
يلبس على عمامة كالنارج ، وذلك كل ما تستطيع أن تصل إليه إذا أردت أن تعرف شيئا عن خلقته وزيه ، فإذا أردت أن تدرس أسرته وأن تعرف شيئا عن أبيه وأمه فانك غير مهتد إلى ما يشقى غلبك ، اللهم إلا أنه يرجع في نسبه الامول إلى قبيلة عربية هي قبيلة لحم إن صح ما يقوله النسابون عن نسبه .

كان حتما أن ينشأ عن هذا التحوير انقلاب في فكرة الاخلاق . فقد كانت أكاليل المجد والفخار لا تعرف موضعا غير هامة الفرسان المقاتلين ، فأما هؤلاء الذين يقضون نهارهم في الزراعة والصناعة فبيد أرقاء . حق عليهم الذلة والهوان ، ولكن وجهة النظر أخذت تتطور منذ حلت الصناعة ورسخت قدمها ، لانها تعتمد كما تقدمنا على القوة العقلية ، فأضحى العمل أشرف ما يمارسه الانسان . لانه عماد المجتمع وسنده ... ولما كان هذا العمل لا ينمو ولا يستقيم الا تحت ظل العدالة ، وهذه بدورها لا ترق أو تزدهر الا في جو من الحرية ؛ كانت هذه الحرية اول واجب في عتق الدولة ، وقد عرف سبنسر العدالة بأن : كل إنسان حر في أن يفعل ما يشاء ، على شريطة ألا يتعارض ذلك مع حرية إنسان آخر له ماله من حقوق . ولا يستقيم هذا النص مع نزعة الحرب ، لانها تعبد سلطان القوة وتقوض الطاعة العمياء ، ولكنه شرط أساسي لنجاح الصناعة لانها تعتمد على السلام والحرية في الرأي والابتكار .

تلك هي حقوق الانسان الاساسية عند سبنسر . حق الحياة وحق الحرية ، فأما شكل الحكرمة فلا يقيم له وزنا ، فلتكن ملكية مطلقة أو دستورية أو ماشئت من نظم ، فالتا ولها ما دمنا نتمتع بالحرية والحياة ؟ وفي هذا يسخر سبنسر من النساء اللاتي يلحجن في طلب الحقوق السياسية ، لانها في رأيه وهم باطل لا يسمن ولا يقنى من جوع ، فضلا عن أنه يتوجس من المرأة خيفة ان هي وثبت الى مقاعد النيابة والحكم ، اذ يخشى ان تدفعها غريزة الايثار الى تقوية الضعيف الذي يجب أن يترك للطبيعة تسحقه ؛ فلانذر من الاحياء غير الاقوياء ، نعم يجب أن تتحكم الأنانية وان تظل أساسا لعمالنا بحيث لا تلين لماطفة الايثار ، فهي أسبق منه الى الوجود ، وهي أصلح للحياة والبقاء وهل الايثار الا أثره في له وصميمه ! أليست الابوة حياصيرحا للنفس والوطنية ماهي ؟ ألا تراها أثره مجسمة ؟ فأنت لا تنصير لهذه البقعة من الارض الا لانك تعيش بين أوجانها !

وخلاصة الرأي عند سبنسر أن المثل الاعلى للاخلاق هو مزيج متزن بين الاثرة والايتار - الايثار الذي يشبع الانانية ويقنوها .

زكي نجيب محمود